

. المحور: المناهج التراثية في تحليل الخطاب

عنوان المشاركة : علوم البلاغة وتحليل الخطاب
الكلمات المفتاحية : البلاغة ، الخطاب ، السياق ، اللغة ، التواصل ، الجمال
الملخص :

يُعد علم البلاغة من العلوم التي تُعنى بكيفية توظيف المتكلم للمستويات اللغوية المتنوعة في سياقات معينة ، حتى يتناغم مُنجزه الكلامي مع عناصر السياق الذي أنتجَه ، ويتسق مع طرفي الخطاب وزمن القول ومكانه .

ومن الدراسات التراثية الرائدة التي اهتمت بمستويات الخطاب ومقاماته ، دراسات " حازم القرطاجني " في كتابه " سراج

الأدباء ومنهاج البلغاء " وكتاب " البيان والتبيين " للجاحظ ، و " أسرار البلاغة " لعبد القاهر الجرجاني.. إن وظيفة اللغة في نظر البلاغيين هي تحقيق التواصل بين أفراد المجتمع ، والتعبير عن حاجاتهم ورغباتهم ، والتأسيس لأنماط من العلاقات ، وضروب من المعاملات فيما بينهم ، ومن ثم فالأديب لا يستكمل أصول التعبير ، حتى يكون على علم باللغة ، وأساليب القول ، وهيات التركيب ، وهذا ما وطن البلاغيون أنفسهم له جيلا بعد جيل ، وهياهم للاضطلاع باستظهار مطارح الجمال ، ومكامن البيان في الخطاب وتصنيف خصائصه البلاغية وتحليلها وتعليلها ، باعتبار أن الخطاب هو الآلية الإفهامية التي تشترط النص ، وهذا الأمر لا يتحقق إلا بعملية الربط بين الآلية الداخلية وشروط إنتاج الخطاب ، لأن الخطاب متصل بالعلوم الإنسانية ومتداخل معها ، ومرتبطة بالتداول أو السياق ، لذلك كان المكون السياقي ضروريا للانتقال من المعنى المستمد من المنطوق إلى الدلالة المستمدة من الخطاب بوصفه من الناحية المنهجية ليس واقعا حديسيا ، بل هو نتيجة عملية بنائية تتيح لنا أن ننتج نماذج محددة ومتعددة للخطاب ، يحاول علم البلاغة تحليلها والنظر في مكوناتها اللغوية ، ومراعاة طبيعة السياق الذي أسهم في إنتاجه ، والمقام الذي استعمل فيه ، وكذا مراعاة مقتضى الحال .

ومن ثم راح علم البلاغة يُعنى بتحليل الخطاب ويهتم بدراسة تراكيبه وأساليبه ، ليبين لنا خصائصها ومجراها ، وكشف ما يطرأ عليها من اختلاف عن أصلها اللغوي ، وما إلى ذلك من مواصفات اللغة وأوضاع النحو ، لذلك جاء نقد العرب الأوائل نقدا قنّيا خالصا ، يستتب سحر البيان وجمال التعبير ، على نحو ما صنع " الأدي " و " ابن الأثير " وغيرهما..

Résumé:

La rhétorique de la science qui étudie la façon d'utiliser le haut-parleur divers niveaux de langage dans certains contextes, même en phase avec le contexte verbal produit par les REMPLI éléments, et est conforme aux extrémités du discours et le temps et le lieu de dire.

Il s'agit de l'une des principales études sur le patrimoine consacrée aux niveaux du discours et de ses positions, ainsi que de Hazem Al-Qartajani dans son livre "Siraj Al-Adaba'i et la plate-forme de Balogha", "Al-Bayan et Al-Taibeen" pour Al-Jawhaz et "Les secrets d'Al-Balajah" d'Abdul Kahir Al-Jajani.

Aux yeux des Balagheins, la fonction du langage est d'établir une communication entre les membres de la société, d'exprimer leurs besoins et leurs désirs, ainsi que d'établir des schémas de relations et les types de transactions entre eux, de sorte que l'écrivain ne complète pas les atouts de l'expression; soyez donc conscient du langage, des méthodes pour dire, Quelle est la patrie des Platiens eux-mêmes, génération après génération, et préparez-les à mémoriser la beauté, et les réservoirs de la déclaration dans le discours et la classification des caractéristiques de l'analyse rhétorique et de l'analyse, le discours étant le mécanisme d'interprétation nécessitant le texte, et ceci ne peut être réalisé qu'en liant le mécanisme Cellulaire et les conditions de la production de la parole, parce que la parole est relié l'humanité et qui se chevauchent avec la science, et est liée au commerce ou le contexte, de sorte que la composante contextuelle nécessaire pour passer du sens dérivé de l'opérateur à l'importance dérivée du discours comme l'un de la méthodologie est pas une réalité

intuitive, mais est le résultat du processus structurel qui nous permet de produire des modèles multi-parole spécifiques, la rhétorique essaie d'analyser et d'examiner les éléments linguistiques, et en tenant compte de la nature du contexte dans lequel ils ont contribué à la production, et surtout qui l'a utilisé, ainsi que la prise en compte appropriée.

La science de la rhétorique s'intéresse donc à l'analyse du discours et s'intéresse à l'étude de ses structures et méthodes, à ses caractéristiques et à son évolution, et à la mise en évidence des différences qui découlent de son origine linguistique, et ainsi des spécifications de la langue et des conditions de la grammaire. La critique des premiers Arabes était donc une critique purement artistique, L'expression, d'une manière qui fait "Al Amadi" et "Ibn Al Athar" et d'autres ..

المدخلية.. /

إنَّ الخطاب صناعة تتطلب مهارات ودربة ومراسا ، ومعرفة بأساليب الكلام ، ومخرجاته ومجالاته ، " لأنه يتطلب مجهودات ، وتعتمد درجة النجاح والتوفيق فيه على قدر الجهد المبذول ، وهو عمل ماهر ، لأنه يتطلب معرفة نظرية ، ويعتمد النجاح في ذلك على درجة المران الذي حصل عليه الفرد ، وبهذا... يمكن القول بأنَّ الكلام قد يكون أكثر نجاحا في بعض الأحيان ، منه في أحيان أخرى ، وقد يتقنه بعض الناس أكثر من بعض .."- 1

وفي هذا السياق فإنَّ الخطاب هو في معظمه كلام يقتضي مهارات وكفاءات تؤدِّي بصاحبها إلى تحقيق غايات معينة ، وقد أشار " ابن خلدون " إلى : " أنَّ اللغات كلُّها ملكات شبيهة بالصناعة ، إذ هي ملكات في اللسان للعبارة عن المعاني ، وجودتها وقصورها بحسب تمام الملكة أو نقصانها ... فإذا حصلت الملكة التامة في تركيب الألفاظ المفردة للتعبير بها عن المعاني المقصودة ، ومراعاة التأليف الذي يطبَّق الكلام على مقتضى الحال ، بلغ المتكلم حينئذ الغاية ، من إفادة مقصودة للسامع .."- 2 - فاللغة هي وسيلة لتحقيق عملية التواصل وفق مقتضيات السياق ، وإذا سقطت البلاغة كميّار من معايير النقد عند النقاد العرب المعاصرين ، فإنَّ بلاغة الخطاب لا تسقط أبدا من الأدب ، لأنَّ الأدب لا يكون أدبا إلا بجمال التعبير والخطاب .

وقد ذهب " عبد القاهر الجرجاني " إلى أنَّ المجاز المرسل والتّمثيل ، هما أساس بلاغة الخطاب ، وهذا مايفهم من من قوله : " ومن لا يعرف مخارج الكلام ، فمحال باطل ، لأنه يؤدِّي إلى إبطال الغرض من الآية.. "- 3 -

ومن ثمَّ فإنَّ من يتصدَّى لدراسة معنى الخطاب ، يجب أن يحيط علما بأصول اللغة ومستوياتها ودلالاتها ، حتّى يقوى على إنتاج الخطاب وفق ما يقتضيه الحال ، وهذه المعرفة هي خلاصة لما يعرف بالكفاءة اللغوية التي يمتلكها الإنسان المثقّف السوي العارف بطرائق الكلام ، وأساليب القول ومناحيه ، ومجالاته ، ومقاماته ، وأغراضه المختلفة ، إلى جانب المعرفة بالأبعاد الثقافية التي تتوافر لدى أطراف الخطاب ، لأننا نلاحظ أننا انتقل من دلالة الوضع "المعنى الحقيقي" الوضعي إلى دلالة الملزوم بالعقل المستلزم يتم بواسطة استدلالات ذات طبيعة غير لغوية ، تتم بواسطة مايعرف عند بعض المناطق المعاصرين بالخلفية الثقافية الاجتماعية .."- 4 -

التي يمكن استخدامها في الخطاب لإفهام المتلقّي بمقاصد المتكلم وأغراضه ، ذلك أنَّ الخطاب قد عرف آلية الكتابة للدلالة على هذه الأغراض والمقاصد ، ومن ثمَّ فإنَّ إنتاج الخطاب يتطلب مهارات ذهنية من قبل المتكلم ، ويقتضي التأويل من قبل المتلقّي ، فالمعنى عند " الجرجاني " يؤخذ من لفظ الخطاب ، أو يفهم من علاقة الخطاب بملايسات إنتاجه ، وهو مايعرف عند البلاغيين بالمقام أو مقتضى الحال .

أما " تمام حسان " في كتابه " الأصول " فقد ذهب إلى تحديد مفهوم المقام عند علماء البلاغة العرب بقوله : " لقد فهم البلاغيون المقام أو مقتضى الحال فهما سكونيا قاليا نمطيا مجردا ، ثم قالوا : لكل مقام مقال ...فهذه المقامات نماذج مجردة ، وأطر عامة ، وأحوال ساكنة ..وبهذا يصبح المقام عند البلاغيين سكونيا ، فالذي أقصده بالمقام ليس إطارا ولا قالبا ، وإنما هو جملة الموقف المتحرك الاجتماعي الذي يعتبر المتكلم جزءا منه ، كما يعتبر الكلام والسامع نفسه ، وغير ذلك مما له اتصال بالتكلم ، وذلك أمر يتخطى مجرد التفكير في موقف نموذجي ليشمل كل عملية الاتصال ..وعلى الرغم من هذا الفارق بين فهمي وفهم البلاغيين للمصطلح الواحد ، أجد لفظ المقام أصلح ما أعبر به عما أفهمه من المصطلح الحديث " سياق الحال " الذي يستعمله المحدثون ..-5

لذلك فإن الخطاب له هدف يتصل بالمتلقي ، ومن ثم يسعى المتكلم إلى التوصل بالأدوات اللغوية والوسائط التعبيرية التي من شأنها أن تحقق هذه الغاية ، وقد أشار " عبد القاهر الجرجاني " إلى هذه المسألة في سياق تمييزه بين أنواع الخبر وأضربه ، بقوله : " من فروق الإثبات أنك تقول : زيد منطلق وزيد المنطلق ، والمنطلق زيد ، فيكون في كل واحد من هذه الأحوال غرض خاص وفائدة لا تكون في الباقي .."6 وقد يعتمد المتكلم إلى البديع لتحقيق غايته من إنتاج الخطاب ، هذه المحسنات التي يزين بها المتكلم خطابه ، ويرصعه ، وفي هذا الشأن ، قال : " عبد القاهر الجرجاني " عن البديع : إنه " يُعنى بطلاء المعنى وزخرفته ، فهو على طريق التحسين الشكلي القائم على علاقات ، أما البديع فطرق التحسين عنده من قبيل الأساليب .."7

وهي إلى ذلك آلية يعتمد عليها المتكلم للارتقاء بخطابه وتحمله وظيفة تواصلية لها علاقة بعناصر السياق ، لأن ما يعطي التجنيس من الأفضلية ، أمر لم يتم إلا بنصرة المعنى إذ لو كان باللفظ وحده لما كان فيه مستحسن ، ولما وجد فيه إلا معيب مستهجن ، ولذلك ضم الاستكثار منه والولوع به ..8 وقد خلص " عبد القاهر الجرجاني " إلى تصنيف الخطاب إلى ضربين : مباشر وغير مباشر ، فالمباشر هو الذي يُعرف مدلوله من لفظه ، وغير المباشر هو الذي يعتد فيه بدراسة لغة التواصل ، في ظل مراعاة السياق الذي أسهم في إنتاج الخطاب .

أما " السكاكي " في كتابه " مفتاح العلوم " فقد اهتم بدراسة وتحليل بعض الضوابط والآليات التي تُخرج بعض الأفعال الكلامية عن معناها الحقيقي إلى معنى آخر يُفهم من سياق الكلام ، مثل : الاستفهام ، الأمر ، النهي والنداء ، كما تناول الكناية والمجاز على اختلاف سياقهما وصيغهما ..

ومن ثم فإن عملية إنجاز الخطاب تُبنى على مدى قدرة الإنسان التداولية ، وبحسب خبرته ومهارته في صناعة الخطاب ، لذلك فإن تفاوت الناس في مستوى هذه المهارة والكفاءة ، ينتج عنه بالضرورة تباين في مستوى خطاباتهم ، بحسب ماذهب إليه " الجرجاني "9

لقد حاول " السكاكي " وضع استراتيجية استدلالية تتولى الانتقال من معنى الخطاب الحرفي إلى الخطاب المستلزم ، من خلال نسق محكم ، حيث يقول : " يطلب المتكلم طلبا يستدعي مطلوبا مستقبليا ، لأنه غير حاصل وقت الطلب ، والطلب إما ممكن الحصول في الذهن أو في الخارج ، وإما غير ممكن الحصول في الذهن أو في الخارج ، فيشير إلى كيفية الانتقال من المعنى الحقيقي إلى المعنى المستلزم .."10

وبهذا يكون " السكاكي " قد فتح باب عدم حصر الخطاب في إطار معنى وحيد ، ليشمل هذا الإطار تعدد المعاني واختلافها وربطها بسياقاتها واستعمالاتها المتعددة ، إذ يقول : " وتتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ، ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره ، وأعني بخواص التراكيب ما يسبق منه إلى الفهم عند سماع ذلك التركيب جاريا مجرى الكلام اللازم له ..و أعني بالفهم فهم ذي الفطرة السليمة ، مثل ما يسبق إلى فهمك من تركيب : إن زيد منطلق ، إذا سمعته عن العارف بصياغة الكلام ، من أن يكون مقصودا نفي الشك ، أو رد الإنكار ، أو من تركيب " زيد منطلق " من أنه يلزم نفي الشك إلى الإخبار ..."11

ومن ثم فإن الخطاب في تصور " السكاكي " تركيب لغوي وثيق الصلة بالمعنى ، وهو الأمر الذي حمّله على ربط قصد المتكلم بشكل اللغة الدال عليه ، باعتبار أن لكل معنى شكلا أو صيغة لغوية تدل عليه.

وفي ضوء هذه المقاربة يمكن التمييز بين المعنى الذي يدل عليه الخطاب بصورة مباشرة ، والمعنى الذي يستلزمه ويقصده المتكلم دون أن يفصح عنه في الخطاب..

لذلك فإن علم البلاغة لا يتوقف عند معرفة مفهوم المصطلح ، وما يطبق عليه من شواهد ، من آيات وشعر ، وإنما الأمر يرتبط بالسياق كله ، فلا يصح ولا يستقيم أن يقتطع البلاغيون الآية أو الشاهد الشعري من سياقه ، لأن بيت الشعر جزء لغة الشاعر ، وجزء من فكره ، ومن عقله ، ومن مشاعره ، فلا ينبغي أن يفهم الشاهد إلا في ضوء ذلك كله ، وهذا ما ينبغي أن يكون عليه الدرس البلاغي في العصر الحديث ، على شاكلة البلاغيين القدامى في الشرح والتفسير والتعليل ، قبل أن تصير البلاغة بلاغة تعليمية لا هم لها إلا استنباط القواعد ، والبحث عن الشواهد التي تجلوها وتوضحها للمتلقى ، ومنه فإن ينبغي التماسها في سياق الكلام أو في مقتضى الحال والمقام ، ولنضرب مثالا على اعتداد القدامى بالسياق ، بوقوفهم عند قوله تعالى : "إنا إليكم لمرسلون . يستلون بها على الخبر الإنكاري ، يريدون الكلام تخبر به رجلا منكرا لما تقول ، أو يعتقد خلاف ما تقول ، فلا بد من تأكيد الكلام أو الخبر بمؤكد يوازي حال المخاطب من الإنكار ، لذلك اشتملت الآية على التأكيد بـ "إن" في قوله تعالى : "إنا إليكم مرسلون" ، ولكن المقام كان يقتضي تأكيد الكلام بأكثر من مؤكد ، مراعاة لحالة الإنكار ، فجاءت الآية على هذا النحو " واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون ، إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما ، فعزناهما بثالث ، فقالوا : إنا إليكم مرسلون ، قالوا : ما أنتم إلا بشر مثلنا ، وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون ، قالوا : ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون .." الملاحظ أن قوما جاءهم المرسلون ، وكانوا اثنين فكذبوهما ، فبعث الله إليهم بثالث ، وهذا البعث يدل على حال التكذيب ومقام الإنكار ، وهؤلاء الثلاثة يستأنفون الجدل والحوار ، ويقابلون الإنكار بالتأكيد والإلحاح ، فيؤكدون لهم الرسالة ، بالقول : "إنا إليكم لمرسلون" باستعمال مؤكدين هما : إن ، واللام . لذلك جعل البلاغيون الكلام ثلاثة أضرب : - فإذا كان المخاطب خالي الذهن استغنى عن مؤكدات الحكم وإن كان مترددا حسن تقويته بمؤكد - وإن كان المخاطب منكرا للخبر وجب توكيده بمؤكدين فأكثر - نحو قول "أبي العلاء المعري" : وإن كنت الأخير زمانه -...لأت بما لم تستطعه الأوائل .

لذلك نخلص إلى حقيقة مؤداها أن هناك آليات ذهنية تتدخل للإفلات من معنى اللغة الحقيقي ، ثم تأويل الخطاب مع توفر قرائن دالة على ترجيح غرض أو قصد دون آخر ، سواء في إنتاج الخطاب أو في تأويله ، وهو ما أشار إليه "السكاكي" بقوله : "وإذا عرفت أن إيراد المعنى الواحد على صور مختلفة لا يتأتى إلا في الدلالات العقلية ، وهي الانتقال من معنى إلى معنى بسبب علاقة بينهما كلزوم أحدهما الآخر بوجه من الوجوه .." 12

إن تصور البلاغيين يقوم على أساس أن الخطاب يأخذ وضعه الحرفي ، فيتضح فيه القصد مباشرة بدون عمليات استدلالية ذهنية للاستدلال عليه ، كما يمكن أن يفيد غير ما وضع له ، فيكون المتلقي في حاجة إلى عمل ذهني يتيح له أن يتجاوز المعاني المعجمية ، بغرض الوصول إلى مقاصد الخطاب ، وهذا ما توقف عنده "السكاكي" في معرض حديثه عن الكناية والمجاز ، حيث فرق بينهما ، في حين اعتبر غيرهما أنهما ظاهرتان لغويتان مترادفتان ، بقوله : "والفرق بين الكناية والمجاز يظهر من وجهين ، أحدهما أن الكناية لا تنافي إرادة الحقيقة بلفظها ، فلا يمتنع في قولك : فلان طويل النجاد أن تريد طويل النجاد ، من غير ارتكاب تأويل مع إرادة طول قامته ، والمجاز ينافي ذلك ، فلا يصح في نحو : رعينا الغيث أن تريد معنى الغيث ، لأن المجاز ملزوم قرينة معاندة لإرادة الحقيقة كما عرفت .." 13 ومن ثم القدرة الاستدلالية الذهنية هي التي يتم بواسطتها ربط الخطاب بالمعنى ، ويتولى سياق الخطاب تحديد المعنى الراجح ، إلى جانب الدور الحيوي الذي تلعبه الثقافة في تصنيف المعاني وشرح طبيعتها ، وتحديد مقاصد المتكلمين وأغراضهم ، وهو ما أشار إليه "السكاكي" في مضممار تعريفه للكناية ، بأنها : "ترك التصريح بذكر الشيء إلى ذكر ما يلزمه ، من المذكور إلى المتروك ، كما نقول : فلانة نؤوم الضحى ، ينتقل إلى ما هو ملزوم ، وهو كونها مخدومة غير محتاجة إلى السعي بنفسها.. 14

وهذا مثال من قوله تعالى تتضح فيه فكرة اهتمام علم البلاغة بتحليل الكلام والنظر في عناصره وأدواته ، وبيان ما ينطوي عليه من مفاهيم ودلالات ومعان ، يقول تعالى : "ولمّا ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ، ووجد من دونهم امرأتين تذودان ، قال ما خطبكم ، قالت : لا نسقي حتى يُصدر الرّعاء ، وأبونا شيخ كبير ، فسقى لهما ، ثمّ تولى إلى الظل .." فالملحوظ أنّ المفعول به في " يسقون " و"تذودان " و" لا نسقي " و"سقى لهما " ، قد حذف ، باعتبار أنّ هذه الأفعال هي أفعال متعدية تحتاج إلى مفعول به ، غير أنّ الآية قد تجاوزت هذا الوضع إلى وضع آخر جديد مقصود ، لأنّ المعنى هو سيدنا موسى عليه السلام ، وما أنصف به من خلق الشّهامة والنّجدة والإنصاف ، بدليل أنّ المورد هو مستقى الناس ، لذلك كثر الزّحام حوله ، مصداقا لقول الشّاعر " أبو فراس الحمداني " : تزدهم القصائد على بابه ... والمنهل العذب كثير الزّحام . ومن ثمّ عمد سيدنا موسى إلى السّبق إلى الماء ، وانخذاً الفتاتين ، ومدافعة النّاس دونهما والسّقي لهما ، ومنه فالعبرة بجلال الموقف وحسن السلوك ، " سواء كان المسقي غنما أو إبلا .." 15 ولمّا كان الغرض هو تصوير هذا الموقف العظيم من سيدنا موسى ، ولا يتوقّف على المفعول به ، حذف من الآية ، فتحقّق الإيجاز والإعجاز والبلاغة ، باعتبار أنّ لا فائدة من ذكر المفعول به . إنّ المعيارية التي اتّسمت بها البلاغة ، قد تهاوت وسقطت كمقياس من مقاييس النّقد العربي المعاصر . غير أنّ بلاغة التّعبير تبقى خصيصة ولازمة من لوازم الأدب الرّاقى الجميل ، ذلك أنّ الأدب لا يكون أدبا إلّا بجمال التّعبير ، مهما تجددت النّظريات ، وتعدّدت المذاهب والمدارس والفلسفات المختلفة ، فهناك بونٌ واسع بين علم البلاغة ، وبلاغة الكلام . لذلك وجدنا الأوربيين في حمة الفلسفات المختلفة في الأدب والنّقد يتمسّكون بالنّص لا السياق ، ابتغاء الجمال الأدبي .

إنّ علم البلاغة يقفنا على خصائص نظم الكلام ، ويعمل على تحليل الخطاب ، بل ويكشف لنا عن طاقات اللغة وإحياءاتها ورموزها ودلالاتها غير المباشرة . لذلك اهتمّ البلاغيون بدراسة بعض مظاهر الخطاب ، بغرض بيان وعيهم ومعرفتهم بتماسك الكلام ، وانسجام بنيته الدّلالية والشّكلية مع بنية العالم المعبر عنه ، ومن ثمّ فإنّ علم البلاغة يحاول الارتقاء بالخطاب إلى مستوى تعبيرى ، يحمل القارىء أو المتلقّي على التّجاوب معه والتأثير به . غير أنّ البلاغة الجديدة تقوم على موروث ومنجزات البلاغة القديمة ، وهي مادّة لا تخلو من جدّة ، من حيث الموضوع والأداة والغاية ، ثمّ إنّ " البلاغة من حيث هي خطاب تاريخي إمبراطورية أكثر اتّساعا وصلابة من أيّة إمبراطورية سياسيّة .." 16 وتهدف البلاغة بوصفها شبكة من الأعمال إلى تحقيق الإقناع والتأثير ، وهي ترقى لان تكون ممارسات ثقافية واجتماعية وأدبيّة ولسانيّة ... إلى جانب بلاغة الصورة التي تعتبر علامة تدل على النّسق الثقافي السائد ، " وهي تختزل تعابير ودلالات اللغة المنطوقة .." 17 لقد تحوّلت البلاغة إلى علم يحاول توصيف الخطاب وتفسيره ، وتفكيك النصوص والخطابات المختلفة التي ينتجها الفكر الإنساني الحديث " متجاوزة صفتها المعيارية التي لا زمتها ردحا من الزّمن قصد تقويض الملفوظات الأدبيّة والحكم عليها بالجودة أو الرّداءة انطلاقا من مقاييس أسلوبية معيّنة .." 18

وهناك من ذهب إلى أنّ تحليل الخطاب ماهو إلّا نظرية بلاغية جديدة تهتم وتعنى بوصف وتحليل تشكلات الخطاب اللغوية والدّلالية ، وتحاول تأويل الخطاب وإنتاج الدّلالة النّصيّة ، وإبراز الاستراتيجية الإقناعية للخطاب ، وكذا " تحليل مقومات الإقناع اللغوية والبصريّة ، من خلال الانتقال من بلاغة الكلمة إلى بلاغة الصورة والحركة .." 19 ومن ثمّ فإنّ علم البلاغة بات يبحث علاقة النّاص بالنّص ، وعلاقتهما بالمقام والتّلقّي ، كما يبحث عن الإجابة لأسئلة أساسيّة هي : من يتكلّم ؟ ، إلى من يتكلّم ؟ ، ماذا يقول ؟ ، كيف يقول ؟ ، ماذا يقصد ؟ ، هل هناك

فرق بين القول والقصد الذي يريد ؟ ، أين يقول ؟ ، متى يقول ؟ ، ... لتصبح البلاغة نظرية نصية تداولية ، تنهض وتتولى تحليل وظائف المقام التخاطبي الذي يتحكم في بنية النصوص ووظيفتها الاجتماعية التداولية 20 " إن تتبع الرصيد المعرفي للفكرة البلاغية يحيل على تعدد المرجعيات المنشئة لمفهوم البلاغة ذاتها ، مما يبرر لتطور المفهوم وتنوعه ، ومن ثم تداخله مع مسارات معرفية أخرى تشترك معه في دراسة القول ، مثل اللسانيات والنحو وتحليل الخطاب والسيميائية والتداولية والأسلوبية .. " 21 وفي هذا السياق يؤكد البلاغيون قيام الرؤية البلاغية على نظرات معرفية مختلفة ، تجمع بين كفايات الوصف والتفسير والمقارنة .

لقد باتت البلاغة فعلا وخطابا لا مناص من الاعتداد به في تأويل النصوص ، ويشكل الخطاب الموضوع الأساسي للبلاغة .

إن علم البلاغة يعنى بالتحليل التداولي لأي خطاب كان ، ويهتم بموضوع الرسالة اللغوية والفاعل المنتج لهذه الرسالة ، الذي يتوجه إلى المتلقي محاولا التأثير فيه ، محققا الحوار والتواصل الدائم معه ، ولا يفترض من الفاعل أن يكون شخصية أو فردا معروفا في ممارسته القولية ، بل هو يبني نفسه ، ويحقق ذاته من خلال تلك التلويحات الأسلوبية في الخطاب الواحد ، ومن الناحية اللسانية قد يختلف فاعل القول عن المؤلف ، ولا يشكّلان مرسلا واحدا ، مما ينتج عنه نوعان من الخطاب ، خطاب مباشر وخطاب غير مباشر الخطاب المباشر: وفيه ينبغي للفاعل أن يتبين خطاب الآخر على أنه هو المنتج له ، ويوظفه في مقام لا يقوى المتلقي أن يفرق بينه وبين القائل الأصلي ، نحو مانجده في توظيف الأمثال ، كأن نتحدث عن توافق وتمائل بين شخصين في بعض الصفات ، فنقول : " وافق شن طبقة " ، لكن التشابه بين الموقفين هو العلاقة التي جمعت " شن طبقة " .

أو كقولنا : " هذا الشبل من ذاك الأسد " ، فالمقصود ليس الإخبار عن الأسد والشبل ، وإنما هو إخبار عن والد وولد ، فالجملة تتحدث عن الولد بوصفه صاحب موقف يجعلنا نستحضر المقولة ، وهي تتحدث عن الوالد بوصفه صاحب موقف سابق مشهود ، وتشير إلى اقتفاء الابن آثار أبيه . ولعل مايفهم من هذا القول " ليس من المدلولات المباشرة للألفاظ ، ولا هو من الإيحاء ، وإنما هو من الدلالات التي يتداولها الناس فيما بينهم .. " 22

الخطاب غير المباشر : وفيه تتضح الوظيفة التداولية للبلاغة ، من خلال نقل المتكلم لخطاب الآخر بأسلوبه ، وتغيير ما يجب تغييره من أزمنة الأفعال والضمان ، ويصبح بذلك المنتج للخطاب واحدا . فهو يمتص خطاب الآخر ويؤديه بطريقة غير حرفية ، وينقله إلى موقفه القول ، فيصير المتكلم الأول شخصا غائبا في الخطاب .. " 23

إن الاهتمام باللغة هو اهتمام بالخطاب " والتخاطب بطبيعته يستدعي الحاجة المباشرة والملحة والفورية إلى القوالب والتراكيب اللفظية التي تسعف المتحدث أو المتخاطب ، وتمكّنه من التعبير عما يجول في فكره ، أو يعتلج في نفسه دون تعثر أو توقف أو صعوبة ، وهذا في حد ذاته يدفع إلى تحريك الذاكرة وإثارتها أو الإلحاح عليها من أجل الاستدعاء الفوري لما يسد الحاجة من محتوياتها من العناصر اللغوية .. " 24

ومما لا شك فيه أن استعمال هذه التراكيب يرتبط بعلم البلاغة التي تحاول الاستحواذ على القوانين الجوهرية لا استعمال اللغة .. ويركز علم البلاغة في مقارباته على " الاهتمام بجانب الاتصال أكثر من اهتمامه بجانب الإقناع أو التأثير أو الإمتاع ، فيصبح من المنطقي عندئذ اعتبار البلاغة دراسة لطرائق الفهم اللغوي ، وعدم الفهم وسبل علاجه 25 ، ومن ثم فإن علم البلاغة لا تقتصر وظيفته في تحليل الخطاب على عملية الإفهام الجيد فحسب ، ولكنها تحاول أن تؤدي أغراضا أخرى تتجاوز الغرض الأساسي المتمثل في التوصيل " وهي أغراض تحمل تسميات عدة لا تكاد تخرج في جوهرها عن مدلول البلاغة " أغراض جمالية وفنية " ، وتتمثل في اللغة الشاعرة المشحونة بالوجدان والعاطفة ، والتي تفيد التأثير والتوصيل من

جهة ، وتحقيق الإثارة من جهة أخرى باستخدام ألفاظ وعبارات قويّة ، ومثيرة حافلة بجوانب التأثير الجمالي من صور خيالية تعرض فيها الأفكار وفق استعمالات مجازية تبعث على الانفعال " 26 ومنه فإنّ علم البلاغة يأبى أن يكون لغة ذات دلالة حرفية ، تقتصر على تقرير ما يقال أو التعبير عنه ، بقدر ماهي استراتيجية كلامية تحاول التأثير في المتلقّي باعتماد مختلف آليات الإقناع والتأثير ، بتحميل الألفاظ دلالات ومعاني جديدة ، وهو الأمر الذي يستلزم القيام بعملية التأويل لفهم مقاصد الكلام وحمله على وجوهه الصّحيحة .

ويظل هذا العلم يرصد النصوص لتحليلها أكثر من العمل على إنتاجها ، متوخّياً النأي بنفسه عن طابع المعيارية ، وهذا ما أشار إليه أحد الدارسين بقوله : " ضرورة وجود علم عام للنص يكون صالحاً للدراسة النصوص الأدبية وحدها ، بل لدراسة غيرها من النصوص على اختلافها ، ذلك أنّ النص هو بشكل ما بلاغة ، أي أنه يمتلك وظيفة تأثيرية ، وبهذا الاعتبار فالبلاغة تمثّل منهجاً لفهم النص مرجعه التأثير " 27 لذلك تسعى البلاغة إلى تقديم نموذج يتألف من خمس خطوات توضح مراحل بناء النص ، وهي الإيجاد ، الترتيب ، العبارة ، الذاكرة ، الإلقاء ، فالذاكرة والإلقاء مرتبطان بالجانب الشفهي ، والإيجاد يمثل ما يعرف بالمقام ، في حين أنّ الترتيب يخضع للجنس الخطابي من موعظة أو وصية أو خطابة .. أمّا العبارة " فتضم ثلاثة مجالات : مبادئ الأسلوب ، أنماط الأسلوب ، ومستويات الأسلوب ، وهذه المجالات الثلاثة مترابطة ترابطاً شرطياً . ولا يمكن لمبادئ الأسلوب أن تتحقّق بعيداً عن أنماطه ومستوياته .. " 28 ومن الباحثين من يرى أنّ نظرية الحجاج هي ضرب من البلاغة الجديدة ، التي تحاول تحليل الخطاب وتركز على دراسة معيّنات الفعل الحجاجي وأدواته الضابطة للحدث الكلامي ، بل يمكن للدارس أن يستدعي مفهومات نظرية البلاغة الجديدة لتحليل الخطاب ، وتفسير القيمة الحجاجية للملفوظ ، وتحديد غايته الإبلابية والإقناعية في آن واحد .

وعلى مستوى آخر يمكن دراسة الوجوه البلاغية من بيان وبديع ومعان بالصورة التي تنقل هذه العناصر من مجرد كونها ملامح لغوية تحمل العبارة فتضفي عليها شعرية ممتعة ، إلى أن تكون أدوات حجاجية بلاغية ، ومن ثم يمكن تحليل الخطاب وفق رؤية بلاغية تستند إلى ممارسات نقدية ولسانية وفلسفية متعدّدة لقد غدا علم البلاغة يعنى بفنّ التركيب لا بفنّ النثر ، والتركيب يعتمد على ملاحظة التفصيلات ، ففي باب التشبيه هناك نماذج عجيبة من مثل قول الشّراح : والشّمس كالمرآة في كف الأشل .. " لقد تكلموا عن الشكل ، والاستدارة ، والإشراق ، والتلؤلؤ ، وتحدّثوا عن الحركة التي تراها للشّمس ، هذه الحركة المتصلة السريعة ، وهذا التّموج والاضطراب العجيب " 29

إنّ مثل هذه الشروحات تعني اجتماع التحليل مع التركيب اللذين يعنيان موقفاً يرمز إلى اضطراب النفس وثرائها ، ويعبران عن نشاط نفسي إلى جانب نشاط ذهني ، بل نلمس في هذا المثال بحثاً عن عملية تطهير ، من خلال تحريك كلّ ساكن ، ونسقا يحيل على التّطلع والاستحياء ، التّقدم والتّراجع . لقد ارتبط علم البلاغة بفكرة القواعد وسلطتها لدى الكثير من الدارسين ، لاسيما في الفترة التي ارتبطت فيها البلاغة بالنقد ، لكنّها تحرّرت من هذا المفهوم وباتت تهتم بالفحص الموضوعي والتفصيل الدقيق ، وغدت نظاماً لحماية اللغة من خلال التّقييم والوصف .

ولا تنفصل البلاغة بمستوياتها وإجراءاتها وأدواتها وخصائصها عن المجاز ، باعتبار أنّ الوظيفة المجازية مرتبطة بالوظيفة الإبلاغية والاتّصالية ، ذلك أنّ اللغة الشاعرة حسب "عباس محمود العقاد" هي لغة المجاز ، ف " هو الأداة الكبرى من أدوات التعبير الشعري ، لأنّه تشبيهات وأخيلة وصور مستعارة وإشارات ترمز إلى الحقيقة المجردة بالأشكال المحسوسة " 30

كما أنّه من المحاور الأساسيّة التي ارتكزت عليها البلاغة ، حسب رأي " عبد القاهر الجرجاني " إذ يقول : " وهذا الضرب من المجاز على حدّ ذاته كنز من كنوز البلاغة ، ومادة الشّاعر المفلّق والكاتب البليغ في الإبداع والإحسان ، والاتّساع في ظروف البيان " 31

فالمجاز صورة من صور التوسع في الكلام ، وهو من أوصاف البلاغة التي ترجع إلى المعنى ، بل ويدخل تحت باب البيان الذي يعد علما من علومها ، وهو أسلوب من أساليب التعبير والاتصال ، ويمثل لونا من ألوان التنوع الفردي المتميز في الأداء بما يحمله من وعي في اختيار الانحراف عن المستوى العادي في التعبير عن المعاني التي لا يمكن حصرها ، والتي تمس احتياجات الناس في التواصل ببعضهم البعض ، إلى ما يزيد المعنى وضوحا ، ويضفي على عملية الاتصال نكهة خاصة ، بخلاف اللغة المألوفة المتبادلة بين الأفراد بشكل يومي وتلقائي ، فهو يتضمن تعديلا خاصا 32

وهذا التعديل يتمثل في التصوير الذي " ينطق لك الأخرس ويعطيك البيان من الأعجم ، ويريك الحياة من الجماد ، ويريك التئام عين الأضداد .." 33 ويظهر من خلال توليد الصور والمجازات التي يحدث بها المتكلم في المتلقي التأثير النفسي المطلوب فيجبره بذلك إلى اتخاذ موقف انفعالي معين ، لأن " الصورة الموحية ليست بأقل من جسر يصل القائل بالمتلقي " 34

إن التصوير هو استعمال اللغة المجازية الموحية الرأزمة المفعمة بالحيوية ، ذات الظلال والتأثير ، فالصورة " بمثل ما تكون مبعثا على الدهشة والرعدة النفسية بمثل ذلك تكون قد حققت إبلاغيتها ، أي أنشأت حالة من التواصل والحوار والتفاعل بينها وبين المتلقي ..من خلال التقريب غير المتوقع والصاعق بين شيئين مختلفين بطبيعتهما " 35 ، إن لغة المجاز تسمح للمتكلم بالنأي عن الأفكار والعواطف التي يمكن أن تظهر جليلة في التعبير العادي البسيط على وجه الحقيقة باعتبار أن التجوز في الكلام إنما هو وليد الحاجة إلى التجديد في التعبير ، ومحاولة التأثير في المتلقي ، وإيجاد حالة من التفاعل والحوار بين طرفي الاتصال ، سواء كان الاتصال فرديا أو جماعيا ، ومن ثم كانت الصور البيانية أبلغ في التعبير ، وأقوى في التأثير على المتلقي ، فقولنا : التهمت النار المنزل ، أبلغ وأقوى من قولنا : احترق المنزل .

إن علم البلاغة لا يهتم بتحليل الخطاب فحسب ، وإنما يتجاوزه إلى الاهتمام بانسجام الوحدات المؤلفة لهذا

الخطاب ، سواء أكان هذا الخطاب مكتوبا أم منطوقا ، ويظل الدرس البلاغي يراعي ويشغل على المرسل

والمرسل إليه ، ومقتضى الحال ، وكل الدلالات المقامية والإشارية ، وأبنية الاتصال الدلالية والنحوية .

- 1- ميلاري رومان : علم اللغة الاجتماعي ، ترجمة محمود عباس ، عالم الكتب ، القاهرة ، 1960 ص 177
- 2- ابن خلدون : المقدمة ، دار الفكر للطباعة والنشر ، بيروت ، 2004 ، ص 21
- 3- عبد القاهر الجرجاني : أسرار البلاغة ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ، ط1 ، 2006 ، ص 26
- 4- محمد السيدي : من استبدال المعنى بالاستعارة إلى الاستلزام الحواري ، مجلة فكر ونقد ، المغرب ، 2000 ، ص 105
- 5- تمام حسّان : الأصول ، دار الثقافة ، الدّار البيضاء ، 1421 ، ص 322
- 6- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ : البيان والتبيين ، شرح : عبد السلام محمد هارون ، ج 1 ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، ص 83/ 84
- 7- عبد القاهر الجرجاني : أسرار البلاغة ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ، ط1 ، 2006 ، ص 31
- 8- عبد القاهر الجرجاني : المصدر نفسه ، ص 19
- 9- انظر المصدر نفسه ، ص 20
- 10- السّكّاكي : مفتاح العلوم ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط2 ، 1987 ، ص 302
- 11- المصدر نفسه ، ص 161/ 126..
- 12- المصدر نفسه ، ص 330
- 14- المصدر نفسه ، ص 330
- 15- انظر : حلمي مرزوق : النقد والدراسة الأدبية ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط1 ، ص 90 .
- 16- رولان بارت : قراءة جديدة للبلاغة القديمة ، ترجمة : عمر أوسمان ، دار أفريقيا الشرق ، المغرب ، ط1 ، 1994 ، ص 11
- 17- نعمان عبد الحميد بوقرة : الخطاب والنظرية والإجراء ، ص 90
- 18- المرجع نفسه ، 97
- 19- المرجع نفسه ، ص 98
- 20- انظر المرجع نفسه ، ص 104
- 21- المرجع نفسه ، ص 107

22- القزويني : الإيضاح في علوم البلاغة ، تحقيق : محمد عبد المنعم خفاجي ، دار الجيل ، بيروت ، ط3 ، 1993 ، مج

2 ، ج1 ، ص 04

23- انظر : مصطفى ناصف : اللغة والتعبير والتواصل ، سلسلة كتب ثقافية شهرية ، يصدرها المجلس الوطني للثقافة

والفنون والأدب ، الكويت ، رجب 1415 ، 1995 ، ص142

24- سمير أبو حمدان : الإبلاغية في البلاغة العربية ، دار الجيل ، بيروت ، ص 136

25- انظر بلاغة الخطاب وعلم النص : صلاح فضل ، مكتبة لبنان ناشرون ، الشركة المصرية العالمية لونجمان ، ط1 ،

1996 ، ص 190/191 .

26- أحمد فارس : الكتابة والتعبير ، دار الأمان للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط4 ، 1993 ، ص 153 .

27- مصطفى ناصف : النقد العربي ، نحو نظرية ثانية ، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون

والآداب ، الكويت ، مارس 2000 ، ص 222 .

28- حميد آدم ثويني : البلاغة العربية ، المفهوم والتطبيق ، دار المناهج للنشر والتوزيع ، ط1 ، 2007 ، عمان الأردن ،

ص 31 .

29- عبد العزيز قلقيلة : البلاغة الاصطلاحية ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، مصر ، ط4 ، 2001 ، ص 20

30- عبد القادر حسين : فن البلاغة ، عالم الكتب ، بيروت لبنان ، ط2 ، 1984 ، ص 51

31- المرجع نفسه ، ص 52

32- المرجع نفسه ، ص 53

33- مصطفى الصاوي الجويني : مدارس البلاغة المعاصرة ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، 1995 ، ص 69

34- المرجع نفسه ، ص 68

35- عبد القادر حسين : فن البلاغة ، ص 55 .

